الجزء الحادى عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ
لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ (٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الغيب : ماغاب عنك علمه ، والشهادة : ماتشهده وتعرفه ، الانقلاب : الرجوع ، رجس : أى قذر يجب الإعراض عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المعذرين، ومن لاسبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم - ذكر فى هذه الآيات ماسيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم .

الإيضاح

(يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) أى سيعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهم أغنياء أصحاء لاعذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر .

(قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم) أى قل لهم أيها الرسول لاتعتذروا إنا لن نصدقكم فى معاذيركم أبدا ولن نطمئن إليكم .

ثم بين السبب فى عدم تصديقهم فقال :

(قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أنبأنا الله بوحيه إلى رسوله بعض أخباركم التى تسرونها فى ضمائركم وهى مخالفة لظواهركم التى تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق الذى لاشك فيه ، ومن عرف الحق لايقبل الباطل ولا يصدق الكاذب .

وإنما قال نبأنا ولم يقل نبأنى إيماء إلى أنه أمره أن ينبئ بذلك أصحابه ولم يكن هذا النبأ خاصا به ، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضى أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به ، وفى هذا من التشهير بهم والخزى لهم ما لاخفاء فيه .

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد ، وهو الذى سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم، وأما أقوالكم فلا يعتد بها مهما وكدتموها بالأيمان ، فإن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وشهد لكم عملكم بصلاح طويتكم ، فإن الله يتقبل منكم توبتكم ، ويغفر لكم حوبتكم ، ويعاملكم

الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك ، وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق وإلا الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التى تحلفونها فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين .

وفى هذا إيماء إلى الرغبة فى توبتهم حين سنوح الفرصة .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم ما تكتمون وما تظهرون ، فينبئكم حينئذ بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه بما تستحقون وهو ما أوعدكم به فى كتابه الكريم فى هذه السورة وفى غيرها « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .

وفى الآية إيماء إلى أنه ينبغى تحامى كل مايعتذر منه من ذنب أو تقصير، وقد ورد فى الحديث « إياك وما يعتذر منه » .

ثم أكد ماسبق من نفاقهم بقوله :

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم) أى سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سفركم ورجعتم إليهم لتعرضوا عن العتب عليهم والتوبيخ على قعودهم مع الخالفين من العجزة والنساء والأطفال وعلى البخل بالنفقة والمال .

(فأعرضوا عنهم) أى فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير ، لا إعراض الصفح وقبول العذر . روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين قدم المدينة « لاتجالسوهم ولا تكلموهم » .

ثم علل هذا بقوله :

(إنهم رجس) أى إن فى نفوسهم قذرا معنويا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه ، وميل النفوس إليه كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التى ربما تصيبه إذا لم يحتط لها .

(ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) أى وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء لهم بما كسبوا فى الدنيا من أعمال النفاق وغيرها مما دنس نفوسهم ، وزادهم رجسا على رجسهم .

ثم زاد فى تأكيد نفاقهم فقال :

(يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى يحلفون لكم لتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم ، وهذا أهمّ الأغراض لديهم فلا حظَّ لهم من إظهار الإسلام سواه ، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله .

(فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن ترضوا عنهم كما أرادوا ، وساعدتموهم على ما طلبوا فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا ، فإن الله ساخط عليهم بسبب فسوقهم وخروجهم عن أمره ونهيه .

وفى هذا إيماء إلى نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة وأن من يرضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقا مثلهم محروما من رضوان الله ، وأن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه ويدخل فى حظيرة مرضاته ولا يعدّ حينئذ فاسقا .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى الجدّ بن قيس ومعتِّب بن قُشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بألا يجالسوهم ولا يكلموهم . وقال قتادة : إنها نزلت فى عبد الله ابن أبىّ فإنه حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بعد عودته ألا يتخلف عنه أبدا وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

شرح المفردات

الأعراب : اسم لبدو العرب ، واحده أعرابى والأنثى أعرابية ، والعرب اسم لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره : واحده عربى، والمغرم: الغرامة والخسران، من الغرام بمعنى الهلاك ، والدائرة : مايحيط بالشىء والمراد بها مالامحيص منه من تصاريف الأيام ونوائبها التى تحيط شرورها بالناس ، والدائرة أيضا : النائبة والمصيبة ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ، والقربات : واحدها قربة ، وهى فى المنزلة والمكانة كالقرب فى المكان والقرابة فى الرحم ، والصلوات : واحدها صلاة، ويراد بها الدعاء.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم ، بين فى هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنيهم ومنافقيهم كذلك .

الإيضاح

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) أى إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين :

(١) إن كفارهم ومنافقيهم أشد كفرا ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضر، ولاسيما من يقيم منهم فى المدينة ، فهم أغلظ طباعا وأقسى قلوبا لأنهم يقضون جل أعمارهم فى رعى الأنعام وحمايتها من ضوارى الوحوش - إلى أنهم محرومون من العلوم الكسبية والآداب الاجتماعية .

(٢) إنهم أحق وأحرى من أهل الحضر بألا يعلموا حدود ما أنزل الله على

رسوله من الهدى والبينات فى كتابه وما آتاه من الحكمة التى بيّن بها تلك الحدود تارة بالقول وأخرى بالفعل .

وكان صحابته فى المدينة وما حولها يتلقون عنه الكتاب حين نزوله ويشهدون سنته فى العمل به ، ويرسل عماله إلى البلاد التى افتتحت يبلغون الناس القرآن ويحكمون به وبسنة رسوله المبيِّنة له ـ وكل هذا لم يكن مستطاعا لأهل البوادى ، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية .

روى أبو داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا ، إلا ازداد من الله بعْدًا » ذاك أن السلاطين قلما يرضون عمن يصارحهم القول ويؤثرهم بالنصح ولا يزداد قربا منهم إلا المراءون الذين يعينونهم على الظلم ويثنون عليهم بالباطل .

(والله عليم حكيم) أى واسع العلم بشئون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق ، تامّ الحكمة فيما شرعه لهم ، وفى جزائهم من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم .

(ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما) أى ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم فى الجهاد رياء وتقيّة ، ويعدون ذلك من المغارم التى يجب على المرء أداؤها طوعا أو كرها لدفع المكروه عن أنفسهم أو عن قومهم ولا منفعة لهم فيها لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قال الضحاك : هم بنو أسد وغطفان .

(ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظرون أن تحل بكم نوائب الزمان وأحداثه التى تدور بالناس وتحيط بهم ، فتبدل قوتكم ضعفا وانتصاركم هزيمة ، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم ، إذ يستغنون عن إظهار الإسلام نفاقا ، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما أعيتهم الحيل صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أن الإسلام يموت بموته .

(عليهم دائرة السوء) هذا دعاء عليهم بنحو مايتربصون به المؤمنين ، أى عليهم

وجدهم الدائرة السوء تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة إلا مايسرهم من نصر الله وتوفيقه لهم ، وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقولونه مما يعبر عن شعورهم واعتقادهم فى نفقاتهم إذا تحدثوا بذلك فيما بينهم ، عليم بما يضمرونه من سرائرهم التى يخفونها ، وهو سيحاسبهم على مايسمع ويعلم من قول أو فعل وسيجزيهم به .

وبعد أن بيّن حال المنافقين من الأعراب ـ ذكر حال المؤمنين الصادقين منهم فقال :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أى ومن الأعراب من يؤمن بالله ويثبت له القدرة وكمال التصرف فى الكون ، واليوم الآخر الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، قال مجاهد: هم بنو مُقَرّن من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم « وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » .

(ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) أى يتخذ ماينفقه وسيلة لأمرين:

(١) القربات والزلفى عند الله تعالى جدّه .

(٢) صلوات الرسول أى أدعيته ، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يجئ فى نصوص الدين انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها .

وسميت الصلوات الشرعية بهذا الاسم من قِبَل أن الدعاء (وهو المعنى اللغوى لها) هو روحها ومخها وسرها الذى به تتحقق العبودية على أتمّ وجوهها .

وقد بين الله جزاءهم على ما انطوت عليه نفوسهم من صدق الإيمان وإخلاص النية فى الإنفاق فى سبيل الله فأخبر بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها فقال :

(ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن تلك النفقة التى اتخذت قد تقبلها الله وأثاب عليها بما وعد به فى قوله :

(سيدخلهم الله فى رحمته) أى سيرحمهم الله برحمته الخاصة بمن رضى عنهم، وهى هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جنات النعيم، والمراد بإدخالهم فى الرحمة أن تكون محيطة بهم شاملة لهم وهم مغمورون فيها، وهذا أبلغ فى إثباتها لهم من مثل قوله: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ».

(إن الله غفور رحيم) أى إنه واسع المغفرة والرحمة لمن يخلصون فى أعمالهم، فهو يغفر لهم مافرط منهم من ذنب أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم إلى خير العمل وحسن المصير.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

شرح المفردات

رضى الله عنهم: أى قبل طاعتهم، ورضوا عنه: أى بما أسبغ عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ومردوا: أى مرنوا وحذقوا.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فضائل الأعراب الذين يتخذون ماينفقون قربات ـ قفى على ذلك بذكر منازل أعلى من منازلهم، وهى منازل السابقين من المهاجرين والأنصار

ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هى شر الجميع مرنت على النفاق وحذقت فنونه وحال طائفة أخرى بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه ، وهؤلاء يرجى لهم التوبة والغفران من ربهم .

الإيضاح

(والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) ذكر الله فى هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هى خيرها :

(١) السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين و يقاتلونهم فى دار الهجرة وما حولها ولا يمكّنون أحدا من الهجرة متى كان ذلك فى طاقتهم ، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا فى ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين ، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .

(٢) السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة ، وكانوا سبعة ، وفى المرة الثانية ، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين .

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة حال كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، فإذا اتبعوهم فى ظاهر الإسلام كانوا منافقين مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع ، و إذا اتبعوهم محسنين فى بعض أعمالهم ومسيئين فى بعض كانوا مذنبين .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم و إسلامهم ، فقبل طاعتهم وتجاوز عن زلاّتهم ، وبهم أعز الإسلام ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية فأنقذهم من الشرك وهداهم من الضلال وأعزهم بعد الذل وأغناهم بعد الفقر .

(وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة فى هذه السورة وغيرها ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالد بين روحانى و بدنىّ فوز أيما فوز .

والخلاصة — إن هذه الطبقات الثلاث قد استبق أفرادها الصراط ، وشهد لهم ربهم بالمغفرة والتجاوز عن كل ذنب ، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شىء ، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنب .

و بعد أن بيّن كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث ورضاه عنهم ـ بين حال منافقى أهل المدينة ومن حولها فقال :

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) أى إن بعض الأعراب الذين حولكم منافقون .

قال البغوى والواحدى : هم من قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكانت منازلهم حول المدينة ، وذلك لايمنع أن يكون فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ومدحهم ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالى الله تعالى ورسوله لاموالى لهم غيره » ، وعنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها ، أما إنى لم أقلها ، لكن قالها الله تعالى »

وكذلك من أهل المدينة نفسها ناس منافقون من الأوس والخزرج سوى من أعلم الله رسوله بهم فى هذه السورة مما صدر منهم من أقوال وأفعال تنافى الإيمان ... هؤلاء وهؤلاء مرنوا على النفاق وحذقوه حتى بلغوا الغاية فى إتقانه ، فلا يشعر أحد به إذ هم يتقون جميع الأمارات والشبه التى تدل عليه .

(لاتعلمهم نحن نعلمهم) أى لاتعرفهم أيها الرسول الكريم بفطنتك ودقيق فراستك لحذقهم فى التقية وتباعدهم عن مثار الشبهات ، بل نحن نعلمهم بأعيانهم ، وهؤلاء أخفى نفاقا ممن قال الله فيهم : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ

يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » .

وهؤلاء لم يعلمه الله أعيانهم ولافضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم فى هذه السورة لأنهم يتحامون ما يكون شبهة فى إيمانهم ، وضررهم مقصور عليهم لايعدوهم إلى سواهم .

والحكمة فى إخبارنا بحالهم أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم ، ويحذروا أن يفضحهم الله كما فضح سواهم ، وليتوب منهم من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله :

(سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) أى سنعذبهم فى الحياة الدنيا مرتين : أولاهما مايصيبهم به من المصايب وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم . وثانيتهما آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون ، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم فى ذلك الحين ، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب جهنم وبئس المصير .

والخلاصة — إنهم يعذبون فى الدنيا بالعذاب الباطن بتوبيخ الضمائر وعذاب الخوف من الفضيحة على رءوس الأشهاد فى الظاهر ، ثم عذاب النار وبئس القرار .

وجملة القول — إن المنافقين فريقان : فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى لايشعر أحد بشىء يستنكره منهم .

وهذان الفريقان يوجدان فى كل عصر ، فما من قطر من الأقطار إلا منى أهله بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة الغاصب واسترضائه ، وأنه لولاهم لتمادى فى ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد ، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفيّة لاتشعر بها الأمة لأنهم مرنوا على النفاق .

وأشد المنافقين مرودا على النفاق أعوان الملوك المستبدين الذين يُلبسون الباطل لباس الحق ويروّجونه فى أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك .

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) أى وهناك فريق

آخر ممن حولكم من الأعوان ومن أهل المدينة ليسوا منافقين ولا من السابقين الأولين ، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل بالسيء منه ، والسيء بالصالح ، فلم يكونوا من الصالحين الخلص ولا من الفاسقين ، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح ولم يستأذنوا كاستئذان المرتابين ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين ، ثم كانوا حين قعودهم ناصحين لله ورسوله شاعرين بذنوبهم خائفين من ربهم .

وقد بين سبحانه حالهم بقوله :

(عسى الله أن يتوب عليهم) أى إنهم محل الرجاء لقبول الله توبتهم بتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة - وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وتوبيخ الضمير حين تصور سخط الله والخوف من عقابه - ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافه ، والعزم على العمل بضده ليمحو أثره من نفسه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه تعالى يقبل توبتهم لأنه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

وفى معنى الآية قوله : «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» وقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »

قال جماعة من العلماء : إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يجترحون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقلعون عن ذنوبهم .

روى البخارى عن سمرة بن جُندُب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى الليلة (أى فى المنام) ملكان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء

عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لقد تجاوز الله عنهم » .

ولاشك أن هـذا تمثيل فى الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلا للكرامة بعد أن تبعث كلها فى الصورة التى كانت عليها قبل التوبة ، وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر جارٍ يفيض على عتبة الإنسان كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليها وسخا أو قذرا ، وفى الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

الصدقة : ماينفقه المؤمن قربة لله ، والتزكية، من قولهم رجل زكىّ : أى زائد الخير والفضل قاله فى الأساس ، والصلاة : الدعاء ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات فى بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها وقبول التوبة لمن قصّر فى الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه .

روى ابن جرير أن أبا لُبابة وأصحابه (ممن تخلفوا وتابوا وسيأتى ذكرهم) جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُطلقوا فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا» فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فلما نزلت أخذ الثلث من أموالهم فتصدق به عنهم.

وهذا النص وإن كان سببه خاصا، عام فى الأخذ، يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين؛ وفى المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، ومن ثم قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعى الزكاة من أحياء العرب حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه ».

الإيضاح

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) أى خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأنعام وأموال تجارة، صدقة بمقدار معين فى الزكاة المفروضة أو بمقدار غير معين فى زكاة التطوع تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، وتزكى أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.

وقد نسبت التزكية إلى الله فى قوله: « وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ » لأنه الخالق الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح.

ونسبت إلى رسول الله فى هذه الآية فى قوله: « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ »

لأنه هو المربى للمؤمنين على ماتزكو به نفوسهم ويعلو قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية و بيانه لكتاب الله ، فهو القدوة الحسنة لهم .

ونسبت إلى الفاعل لها فى نحو قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » لأنه قد فعل ما كان سببا فى طهارة نفسه وزكاتها من صدقات ونحوها من أعمال البر .

وأما النهى عن تزكية النفس فى قوله : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ » فذاك فى تزكية النفس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها .

(وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم) أى وادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم ، فإن دعاءك واستغفارك سَكَن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها فى مواضعها .

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم ، ومن ملائكته استغفارهم كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » ومن المؤمنين على النبى صلى الله عليه وسلم دعاؤهم له بما أمرهم به فى الصلاة بعد التشهد الأخير كالدعاء المأثور (اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد » .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لاعترافهم بذنوبهم ، سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بندمهم وتوبتهم منها و إخلاصهم فى صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، وعليم بما فيه الخير والمصلحة لهم وهو الذى يثيبهم عليها .

وقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللّهم صلّ على فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللّهم صلّ على آل أبى أوفى » .

وفى هذا إيماء إلى أن المراد بالصدقة مايعم الفريضة وغيرها ، وإلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء ، ومن ثم قيل إن هذا الأمر للوجوب وهو خاصّ به صلى الله عليه وسلم .

فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل ، والدناءة والأثرة ، والطمع والجشع ، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا ، وغير ذلك . فإن من يتعود بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزائنه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ـ يكن أرفع نفسا من أن يأخذ مال غيره بغير حق ، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان والفتن والحروب ، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع ، فهى مثار التنازع والتخاصم ، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات مايجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام .

وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المفرطة فى حب المال ، والنصرانية الروحانية الزاهدة ، فمن أهمّ مقاصده الإصلاحية فى الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل فى أمر المال ليبتعدوا عن شر طغيان الأغنياء على الفقراء ، ونصوص الدين فى هذا الباب هى الغاية التى لايطمح مصلح فى التطلع إلى مابعدها ، وهى هادمة لمزاعم من يفتات على الإسلام من أرباب الجهل والهوى .

وقد فرضت الزكاة المطلقة فى أول الإسلام وكانت اشتراكية ، والباعث عليها القلوب والضمائر لا إكراه الحكام، ثم جعلت معينة محدودة عند ما صار للإسلام دولة.

وسر الوضع الأول أن جماعة المسلمين فى مكة قبل الهجرة كانوا محصورين ،

obeikandl.com

ومنهم الموسر والمعسر وصاحب الثروة وذو الفقر المدْقع ، فوجب أن يقوم أغنياؤهم بكفالة فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لاتكفيهم .

ولاشك أن الأسس الإصلاحية للمال التى وضعها الإسلام لايتسنى لأقدر الأمم المالية فى العصر الحاضر أن تضع خيرا منها ، انظر إليه تره حرم الربا والقمار لما أنهما يوجدان التنازع والتخاصم بين الناس وإن كان فيها بعض المكاسب ، وأوجب الحجر على السفهاء فى أموالهم صيانة لها عن الضياع فيما يضرهم ويضر أمتهم ، وفرض النفقة الزوجية والنفقة على ذوى القرابة من ذوى الحاجة ، وذم الإسراف والتبذير والبخل والجشع والتقتير ومدح القصد والاعتدال فى النفقة على النفس والعيال ، وأباح الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف حفظا للثروة من الضياع وبُعدا عن الأمراض والأدواء البدنية ، وجعل زكاة النقدين الواجبة هى ربع العشر أى $\frac{1}{4}$٢٪ وهو أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستغلال .

انظر إلى الثروة فى مصر نقدا وتجارة وتأمل مقدار ربع العشر الواجب فيها فى كل عام لفقرائها ومرافقها العامة ، ثم قدر فى نفسك إذا هى قامت بالواجب الدينى عليها فى الزكاة ، هل يكون فيها فقر مدقع أو شقاء بين أفراد الأمة ، هل تتصور أن تنتشر فيها الأمراض المعدية أو يخيم على أفرادها الجهل ، أو ترتكب فيها جنايات السرّاق وقطاع الطرقات وذوى الخيانة والغدر ، أظن أن الجواب على ذلك : لا .

وقد جاء فى الكتاب والسنة الترغيب فى بذل المال فى سبيل البر وجعله علامة من علامات الإيمان الموجبة لثواب الرحمن والدخول فى غرفات الجنان ، ولم يجئ مثل ذلك فى أى نوع من أنواع البر وضروب الإحسان .

(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) أى ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم أن الله هو الذى يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه لا رسول ولا مَن دونه .

وفى الآية حضّ على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

(ويأخذ الصدقات) أى يتقبلها ويثيب عليها ويضاعف ثوابها كما وعد بذلك فى قوله : « إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ » .

(وأن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى هو الذى يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربهم ، وإنه هو الرحيم بالتائبين الذى يثيبهم على ماقدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصروا على ذنب كما قال تعالى فى وصف المتقين « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» وجاء فى الحديث « ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه الترمذى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله » والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ، لأنفسكم وأمتكم ، فالعمل هو مناط السعادة ، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجدّ والتشمير ، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه فى أعمالكم وتتذكروا أنه عليم بمقاصدكم ونياتكم ، فجدير بمن يؤمن به أن يتقيه فى السر والعلن ويقف عند حدود شرعه ، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذى يفرق بين الإخلاص والنفاق ، وهم شهداء على الناس .

روى أحمد والبيهقى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » .

وفى الآية إيماء إلا أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان تلى مرضاة الله ورسوله ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «وجبت ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وقال ابن عباس ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

(وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم ، ومن لا يخفى عليه شىء من بواطن أموركم وظواهرها فيعرفكم أعمالكم ثم يجازيكم عليها بحسن الثواب أو سوء العذاب .

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) .

شرح المفردات

مرجون ومرجئون وبهما قرئ : أى مؤخرون ، يقال أرجأت الأمر وأرجيته : أى أخرته .

المعنى الجملى

كان المتخلفون عن الجهاد فى غزوة تبوك أقساما ثلاثة :

(١) المنافقون الذين مردوا على النفاق ، وهم أكثر المتخلفين .

(٢) المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عليهم .

(٣) المؤمنون الذين حاروا فى أمرهم ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم لا عذر لهم ، وأرجئوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القاطع فى أمرهم لأسباب ستذكر بعد .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار ، والتفيؤ بالظلال لاشكّا ونفاقا ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء وأرجئت توبة هؤلاء حتى نزلت آية التوبة «لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ» الخ.

الإيضاح

(وآخرون مرجون لأمر الله) أى ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله فى أمرهم ، وهم أولئك النفر الذين سبق ذكرهم وكانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمّ باللحاق به ولم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم قالوا لاعذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم كما فعل أبو لبابة وأصحابه من الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فنزل فيهم قوله تعالى .

(وآخرون مرجون) الآية فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن إلى أن نزل قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) الآية .

(إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة وقد أُبهِمَ الأمر عليهم وعلى الناس فلا يدرون ماذا ينزل بهم ؟ هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أو يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين .

وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن فى قلوبهم لتصحّ توبتهم .

وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين

على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بما يصلح حال عباده ويربيهم ويزكيهم أفرادا وجماعات ، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح إذا عملوا بها.

ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم فى كتابه ، كما أن تكرار تلاوتها فى مختلف الأوقات مما يوقع فى قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويفيدهم عظة وتهذيبا .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

شرح المفردات

الضرار والمضارة : محاولة إيقاع الضرر ، والإرصاد : الانتظار والترقب مع العداوة يقال رصدته : أى قعدت له على طريقه أترقبه ، وأرصدت هذا الجيش للقتال ، وهذا الفرس للطراد ، ولا تقم : أى لا تصلّ ، والتأسيس : وضع الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع ، والتقوى : اسم لما يرضى الله ويقى من سخطه ، وشفا أى حرف

والجُرُف (بضمتين) : جانب الوادى ونحوه ، والهار والهائر : كالشاك والشائك : الضعيف المتداعى للسقوط ، وانهار : سقط ، والريبة : من الريب ، وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والحيرة ، وتقطع : أى تفرق أجزاء .

المعنى الجملى

هذه الآيات نزلت فى بيان مكيدة من مكايد المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وذكرت هنا لما فيها من العبرة والعظة والذكرى بإبهام عطفها على من أرجأ الله الحكم فى أمرهم ليتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه ، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم .

روى فى سبب نزول الآيات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، كان قد تنصر وقرأ علم أهل الكتاب وكان له منزلة كبيرة فيهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجرا واجتمع عليه المسلمون وعلت كلمة الإسلام وأظهره الله على أهل الشرك خرج فارّا إلى مكة وألّب المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة أُحد وخاطب قومه الأنصار ليستميلهم إلى نصره فسبوه وردوه أقبح ردّ ، ولما فرغ الناس من الموقعة فرّ إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده ومنّاه وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدا ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يأوى إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموا بناءه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوه أن يصلى فى مسجدهم ليكون ذلك ذريعة إلى تقريره لإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على جناح سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

ولما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم (مسجد قباء) الذى أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد وهدمه قبل مقدمه المدينة وأمر أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة إهانة لأهله .

الإيضاح

(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

روى أن الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثنى عشر رجلا من منافقى الأوس والخزرج ، وقد بين الله الأغراض التى لأجلها بُنى ، وهى :

(١) مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجرا قبل وصوله إلى المدينة .

(٢) تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم فى مسجد واحد ، والتشاور فيما بينهم فى الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

(٣) التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك ، فإنهم كانوا يصلون جميعا فى مسجد قباء ، وفى ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة وهو أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية ، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لأغراض الدين ومراميه ، ومن الواجب أن يصلى المسلمون الجمعة فى مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن تفرقوا عمدا كانوا آثمين .

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة

إلى ذلك ، ولم يكن سببا لتفريق جماعتهم ، فكثير من المساجد المتقاربة فى القاهرة وغيرها من الأمصار الأخرى لم تُبْنَ لوجه الله بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء وعدم نصح العلماء لهم .

(٤) الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجىء محاربا فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك .

(وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الخصلة التى تفوق غيرها فى الحسن ، وهى الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وليصلى معهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى إيمانهم لأنهم مابنوه إلا للسوءى وضرار مسجد قباء .

(لاتقم فيه أبدا) أى لاتقم فى هذا المسجد للصلاة أبدا .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) أى إن مسجدا قصد ببنائه منذ وضع أساسه فى أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على مايرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى — هو أحق من غيره أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين .

والسياق يدل على أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، ولكن روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، والآية لاتمنع إرادة كل من المسجدين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى كلا من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه.

(فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدوّ والآصال ، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام ، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ويتبع

العمارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها ـ الطهارة الحسية للثوب والبدن ، وطهارة الوضوء والاغتسال .

والخلاصة — إن التطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، والروايات وردت بكل منهما ، والأولى إرادتهما معا .

(والله يحب المطهرين) أى الذين يبالغون فى طهارة الروح والجسد لحبهم إياها ، لأنهم يرون فيهما الكمال الإنسانى ، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب ، وأشد منهما بغضا لهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصى والتخلق بذميم الأخلاق كالرياء فى الأعمال إذ هو فعل المنافقين ، والشح بالأموال أو بالأنفس فى سبيل الله ابتغاء لمرضاته .

وحب الله إياهم من صفات كماله ، إذ العالم بتفاوت الأشياء فى الحسن والقبح والكمال والنقص يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير و بغض أضدادها .

وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا ، ويظهر أثر حبه لعباده فى أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم كما أشار إليه الحديث القدسى الذى رواه البخارى « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به » الحديث .

وفى معنى الآية ما جاء فى عظة نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهن باتباع أوامره ونواهيه بما يليق بما لهن من مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم ذلك بقوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) هذا بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذى زادوا به رجسا إلى رجسهم .

والأساس على شفا الجرف الهار مثل يضرب لما يكون فى منتهى الوهى والانحلال

والإشراف على الزوال، أى أفمن أسس بنيانه الذى يتخذه موطنا لراحته وهناء معيشته ويتقى به العوامل الجوّية ؛ وعدوان الكائنات الحية على أمتن الأسس وأقواها على مصابرة العواصف والسيول وصد الهوام والوحوش — خير بنيانا ، أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا فكانت عرضة للانهيار فى كل حين من ليل أو نهار ؟

وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان ، والنفاق والارتياب ، أى أفمن كان مؤمنا صادقا يتقى الله فى جميع أحواله ويبتغى مرضاته فى جميع أعماله ، قاصدا تزكية نفسه وإصلاح سريرته — خير أم من هو منافق مرتاب ، يبتغى بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله مع ما يكون لعمله فى الدنيا من العار والفضيحة والخزى والبوار ، وفى الآخرة من الانهيار فى النار .

وخلاصة المثل — بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به وثمرته فى أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه وقرب زواله وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، وبيان أن شر أعمال أهله المنافقين ، ما اتخذوه من مسجد الضرار لمفاسده الأربع المتقدمة .

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت ، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح فى الوجود ، وقد صدق الله وعده وثبّت المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم إلى العمل الصالح ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل ، وأهلك الله المنافقين ، وقد جرت سنة الله فى كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق ، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ، ولم يقلعوا عنه .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى مضت سنته تعالى ألا يكون الظالم مهتديا فى أعماله إلى الحق والعدل ، ولا إلى الرحمة والفضل .

(لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) أى لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين ، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين ، ولكن حين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم : أيتركون على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم ، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء ، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين فى أمره ، ولأى سبب كان ذلك .

ولا يزال هذا شأنهم فى جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذا وصيرورتها جذاذا ، فتكون غير قابلة للإدراك .

وفى هذا إيماء إلى تمكن الريبة فى قلوبهم وإضمار الشرك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياء .

والخلاصة — إنه لا يزال هدم بنيانهم الذى بنوا سببا للقلق واضطراب النفس وإن ذلك لا يزول ما دامت القلوب سالمة - أما إذا تفرقت قطعا وتقطعت أجزاء بقتلهم فحينئذ يسلون عنه .

وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، حكيم فى أفعاله ، ومن حكمته أن بيّن حال المنافقين وأظهر ماخفى من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة فى ذلك .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي
بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ
السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وأصناف المقصرين من المؤمنين، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين فى إيمانهم البالغين فيه حد الكمال، وبذا تمّ معرفة جميع أحوال المؤمنين.

الإيضاح

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) هذا ترغيب فى الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة، فقد مثل الله إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بتمليكهم الجنة التى هى دار النعيم والرضوان الدائم السرمدى تفضلا منه تعالى وكرما ـ بصورة من باع شيئا هو له لآخر ـ وعاقد عقد البيع هو ربّ العزة، والبيع هو بذل الأنفس والأموال، والثمن هو مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعل هذا العقد مسجلا فى الكتب السماوية، وناهيك به من صكّ لايقبل التحلل والفسخ، وفى هذا منتهى الربح والفوز العظيم، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذى خلقها، ولأموالهم إذ هو الذى رزقها، ولهذا قال الحسن: اشترى أنفسًا هو خلقها، وأموالا هو رزقها، إلى أنه تعالى غنىّ عن أنفسهم وأموالهم والبيع والثمن له وقد جعله بفضله وكرمه لهم.

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال: نزلت هذه الآية على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فكبر الناس فى المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يارسول الله أنزلت فينا هذه الآية ، قال «نعم» فقال الأنصارى : بيع ربيح لانقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك فقال : «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية » .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، أن سعد ابن زُرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يأيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمدا ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسِلم لمن سالم . فقال يارسول الله اشترط علىّ ، فقال : تبايعونى على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، قالوا نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله، فما لنا ؟ قال الجنة والنصر .

وأخرج ابن سعد عن الشعبى قال : انطلق النبى صلى الله عليه وسلم بالعباس ابن عبد المطلب وكان ذا رأى إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولايطيل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عينا ، و إن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم : يامحمد سل لربك ماشئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ماشئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟ ، فقال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، فكان الشعبى إذا حدث هذا الحديث قال : ماسمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا « من سلّ سيفا فى سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة ، وفى رواية « اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » .

ثم بين صفة تسليم البيع فقال :

(يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون) أى إنهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل التى توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادّين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل ، ولا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله ، فكل منهما كان فى سبيله ولم يكن رغبة فى سفك الدماء ، ولا حبًّا للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء .

(وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) أى وعدهم وعدا أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبته فى التوراة والإنجيل ، وضياعه منهما فى النسخ التى بين يدى أهل الكتاب لايضير فى ذلك ؛ لأنه قد ضاع منهما كثير وحرّف بعضهما لفظا ومعنى ، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما .

(ومن أوفى بعهده من الله ؟) أى لا أحد أوفى بعهده وأصدق فى إنجاز وعده من الله ، إذ لايمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه .

(فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فزتم به من الجنة .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى الفوز الذى لافوز أعظم منه ، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لايعد فوزا إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل .

وفى هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب مالا يخفى ، إذ جعلهم مالكين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذى بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده .

وعن جعفر الصادق أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . يريد أن الذى يقتل أو يموت فى سبيل الله بذل بدنه الفانى ، لاروحه الباقى .

ثم وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته — بصفات هى :

(١) (التائبون) أى هم الراجعون إلى الله بتركهم كل مايبعد عن مرضاته ، وتوبة الكفار هى رجوعهم عن الكفر الذى كانوا عليه كما قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه ، وتوبة العاصى من معصيته تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتوبة المقصر فى شىء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه ، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره .

(٢) (العابدون) لله المخلصون فى جميع عباداتهم ، فلا يتوجهون إلى سواه بدعاء ولا استغاثة ولايتقربون إلى غيره بعمل قربان ولاطلب مثوبة فى الآخرة .

(٣) (الحامدون) لله فى السراء والضراء ، روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

(٤) (السائحون) فى الأرض لغرض صحيح كعلم نافع للسائح فى دينه أو دنياه أو نافع لقومه وأمته أو النظر فى خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار وقد حث الله كثيرا على السير فى الأرض والضرب فيها كما قال « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » .

وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .

والإسلام الذى يجيز سفر النساء فى الغزوات وهن غير مكلفات بالقتال للمساعدة عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح فهو بالأولى يجيز صحبتهن فى سائر الأسفار ، وفى ذلك إحصان لكل من الزوجين ومنع لهما عن التطلع إلى الأجنبى .

وفسر بعضهم السياحة بالصيام لما روى عن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالبا .

(٥ ، ٦) (الراكعون الساجدون) فى صلواتهم المفروضة ، وخصا بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه .

(٧ ، ٨) (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الداعون إلى الإيمان وما يتبعه من أعمال البر والخير ، والناهون عن الشرك وما يسبيله من المعاصى والسيئات.

(٩) (والحافظون لحدود الله) أى الحافظون لشرائعه وأحكامه التى بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه وما يحظر عليهم فعله منها ، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر منهم إقامته وتنفيذه بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم حفظه منها .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بخيرى الدنيا والآخرة .

وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ

هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) .

شرح المفردات

الأواه : الكثير التأوه والتحسر ، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه ، وقيل إنها كلمة حبشية الأصل، ومعناها المؤمن أو الموقن ، وأصل التأوه : قول أوه أو آه أو نحوهما مما يقوله الحزين أو أوه بكسر الهاء وضمها وفتحها ، وآهٍ بالكسر منونا وغير منون ، والحليم : الذى لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ولا يستخفه هوى النفس، ومن لوازم ذلك الصبر والثبات والصفح والتأنى فى الأمور واتقاء العجلة فى الرغبة والرهبة.

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين فى جميع الأحوال، وهنا بين أنه يجب البراءة من أمواتهم وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم ، ثم ذكر السبب الذى لأجله استغفر إبراهيم لأبيه وهو وعده بالاستغفار بقوله : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ » فلما أصرّ على كفره تبرأ منه ، وبعدئذ بين رحمته بعباده وأنه لا يعاقبهم على شىء إلا بعد بيان شافٍ لما يعاقبون عليه .

أخرج أحمد وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وابن جرير وغيرهم عن سعيد ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : « أى عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله

إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقد كان موت أبى طالب بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، ومن ثم استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت فى أبى طالب ، وأجاب آخرون بأن الذى حصل قد يكون أحد أمرين :

(١) إنها نزلت عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين .

(٢) إنها نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية يستغفر لأبى طالب ، فإن التشديد على الكفار والبراءة منهم إنما جاء فى هذه السورة .

وفى الآية إيماء إلى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه بذلك كقولهم المغفور له والمرحوم فلان كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

الإيضاح

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) أى ما كان من شأن النبي ولا مما ينبغى أن يصدر منه من حيث هو نبىّ ، ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين .

(ولو كانوا أولى قربى) أى ولو كان لهم حق البرّ وصلة الرحم ، وكانت عاطفة القرابة تقتضى الحدب والإشفاق عليهم .

(من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أو بأنه نزل وحى يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن النبوة والإيمان الصادق لا يبيحان الاستغفار للمشركين فى كل حال حتى ولو كانوا أولى قربى إذا ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب الجحيم .

ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخاطر مما تقدم ، فيقال كيف يمتنع النبى والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه فقال :

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) أى وما استغفر إبراهيم لأبيه آزر بقوله (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) أى وفقه للإيمان واهده إلى سبيله — إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى لا أملك لك هداية ولا نجاة و إنما أملك أن أدعو الله لك .

وقد وفى إبراهيم بما وعد ولم يكن إلا وفيا كما شهد الله له بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) أى لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه، قال ابن عباس ، وقيل تبين له ذلك بوحى من الله فتبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » الآية .

ثم بين السبب الذى حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله له : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » . فقال :

(إن إبراهيم لأواه حليم) أى إن إبراهيم لكثير المبالغة فى خشية الله والخضوع له ، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه .

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) أى وما كان من سنن الله فى خلقه ولا من رحمته وحكمته أن يصف قوما بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم للإسلام - بقول يصدر منهم عن غير قصد أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطئ .

(حتى يبين لهم ما يتقون) من الأقوال والأفعال بيانا واضحا بوحى صراحة أو دلالة .

(إن الله بكل شىء عليم) أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد - بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال :

(إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) أى إنه تعالى مالك كل موجود ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩).

شرح المفردات

العسرة : الشدة والضيق ، وزاغ : مال ، والرحب : السعة ، ولجأ إلى الحصن وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ، والرحمة : السعى فى إيصال المنفعة .

المعنى الجملى

بعد أن استقصى سبحانه أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذى سلف ـ عاد مرة أخرى إلى الكلام فى توبتهم جريا على سنة القرآن الكريم فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد لأنه أفعل فى النفس وأشد تأثيرا فى القلب وأجدى فى تجديد الذكرى وأدنى ألا يسأم التالى لها فى الصلاة وغيرها . إلى أنه مناسب لما قبله من النهى عن الاستغفار للمشركين ، إذ كلٌّ مما يتاب منه ، وكل عثرة يطلب منها الصفح والعفو .

الإيضاح

(لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) أى لقد تفضل سبحانه وعطف على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات

صدرت منهم فى هذه الغزوة وغيرها لبلائهم الحسن فيها ، ولأنهم لم يصروا على شىء منها .

وقد كانت هفواتهم على سنن الطباع البشرية واجتهاد الرأى فيما لم يبينه الله بيانا قطعيا بحيث يعد مخالفه عاصيا ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة « عَفَا اللّهُ عَنْكَ ـ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيرا منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار ، وهم خلّص المؤمنين كانت من تثاقلهم فى الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وإنما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل .

(الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفدت فيه مئونتهم من التمر وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شىء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزنخة المتغيرة الرائحة ـ وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبلّوا به ألسنتهم ـ وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العشرة يعتقبون بعيرا واحدا ـ وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم : حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا

فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره ليعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

(ثم تاب عليهم) هذا تكرير للتوكيد كما يقال عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه ، فيدل ذلك على أنه عفو متأكد بلغ الغاية القصوى من القوة والكمال .

ثم علل قبول توبتهم بقوله :

(إنه بهم رءوف رحيم) أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهلكهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلوا فى الله وأبلوا مع رسوله وصبروا فى البأساء والضراء .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم المرجون لأمر الله ، وتقدم أنهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعا خوفا من العاقبة وجزعا من إعراض النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم فى المجالسة والمحادثة .

وهذا مثل للحيرة فى الأمر ، كأنهم لايجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا مما هم فيه ، قال قائلهم :

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة على الخائف المطلوب كفة حابل

ثم ترقى وانتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم فى أنفسهم فقال :

لعل هكذا يهلكهم فلا يهلكهم ١٢/١

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى وضاقت أنفسهم على أنفسهم ، لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلائها بالهمّ والغم حتى لامتسع فيها لشىء من البسط والسرور، فكأنهم لايجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به .

(وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه) أى واعتقدوا أنه لاملجأ لهم من غضب الله ورسوله ، إلا إليه تعالى بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته ، وقد أعرض عنهم رسوله البر الرحيم بأصحابه فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه واستغفاره ــ إلى أنه صلى الله عليه وسلم لايشفع فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم .

(ثم تاب عليهم) أى ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم .

(ليتوبوا) ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

(إن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى كثير القبول لتوبة التائبين ، الواسع الرحمة للمحسنين ، المتفضل عليهم بضروب النعم مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب.

وكان من حديث هؤلاء الثلاثة ماحدثه كعب قال: «لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علىّ كالمغضَب بعد ما ذكَرنى وقال : « ليت شعرى ما خلف كعبا » فقيل له ما خلفَه إلا حسن بُرْديْه والنظر فى عِطْفَيْه فقال :

« معاذ الله ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب أو بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلْع (جبل بالمدينة) أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجدا ، وكنت كما وصفنى ربى (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلىّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحنى وقال : لتهنك توبة الله ، فلن أنساها لطلحة ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر « أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية » .

وفى هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم وتفيض لها عبراتهم ، وقد كان الإمام أحمد لايبكيه شىء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات .

انظر إلى هـذا وتأمل قسوة قلوب الجاهلين المغرورين الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ويتركون الفرائض ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ولا يتوبون إلى الله ولا هم يذّكرون ، وإذا وعظهم الواعظ وجدهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، ومتكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار مكفرات الذنوب مما لا أصل له فى الدين ، أو له أصل يراد به تكفير الصغائر بشرط اجتناب الكبائر، كما قال تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أى يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا فى الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الكذب لايصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعِدِ الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، اقرءوا إن شئتم : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وأخرج البيهقى مرفوعا « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، إنه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ولا رخصة فى الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها أى فى التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا فى مصالح الدار والعيال وغيرها .

أخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » .

ولا شك أن فى المعاريض مايغنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) .

شرح المفردات

رغب فى الشيء : أحبه وآثره ، ورغب عنه ، كرهه : وقد جمع بينهما فى الآية . والظمأ : شدة العطش ، والنصب : الإعياء والتعب ، والمخمصة : الجوع الشديد ، والغيظ : الغضب ، ونيلا : أى أسرا وقتلا وهزيمة ، والوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون — أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

الإيضاح

(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى لاينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من حولهم من الأعراب كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم - أن يتخلفوا عن رسول الله فى غزو فى سبيل الله كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها فضلا عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة — إن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه .

وفى ذلك نهى شديد عن عملهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته صلى الله عليه وسلم بأنفة وحمية .

(ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولاينالون من عدوّ نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح) أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل مايصيبهم فى جهادهم من أذى وإن كان قليلا كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر كوطء أرضه الذى يعده استهانة بقوته فيغيظه أن تمسّه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسْرٍ أو هزيمة أوغنيمة - إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه

بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم أو عروض جوع أو عطش أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشى أو كلام أو نحو ذلك مشكورا مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب .

انقضاء

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

(إن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الله لايدع محسنا أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ــ أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل مافعلوا فلم يُضع لهم أجرا على عمل عملوه .

(ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولايقطعون واديا إلا كتب لهم) أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبر ، قلّ أو كثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين ــ إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاء لهم على عملهم ولايترك شىء منه أو ينسى .

(ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم كأحسن مايجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها وهم مقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك ـــ إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

نفر : خرج للقتال ، ولولا : كلمة تفيدالحض والحث على مايدخل عليها إذا كان مستقبلا ، واللوم على تركه إذا كان ماضيا ، فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ، والفرقة : الجماعة الكثيرة ، والطائفة : الجماعة القليلة ، وتفقه : تكلف الفقاهة والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ، وأنذره : خوّفه ، وحذره : تحرز منه .

المعنى الجملى

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والتفقه فى الدين من قِبَل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان، وهوالركن الركين فىالدعوة إلىالإيمان و إقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدى المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدد الله على المتخلفين قالوا لايتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك و بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزل (وما كان المؤمنون) الآية .

الإيضاح

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما كان شأن المؤمنين ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط

عن الباقين ، لافرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ليتسنى لهم : أى للمؤمنين فى جملتهم التفقه فى الدين ، بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات وما يكون منه صلى الله عليه وسلم من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به ، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهمّ قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا ، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه وبيان أسراره للناس لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضا .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة ـ أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدءوا بقتال من يليهم ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق ؛ وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله : « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة: منها قلة النفقات، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك » .

(وليجدوا فيكم غلظة) الغلظة (مثلثة) : الشدة والخشونة ، أى وليجدوا

فيكم جرأة وصبرا على القتال وعنفا فى القتل والأسر ونحو ذلك كما قال : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » .

والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح .

وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة ، لاأن يقتصر على الغلظة فقط فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم .

وإنما أمروا بذلك فى القتال ومايتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة فى المعاملة ومن ثم صار ذلك من أخصّ صفات المسلمين .

(واعلموا أن الله مع المتقين) أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغلب من إعداد العُدد المناسبة للزمان والمكان التى عناها الله بقوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) ومن الثبات والصبر ، والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ضروبا من مخازى المنافقين كتخلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة ـ ذكر هنا ضروبا أخرى من تلك المثالب كتهكمهم بالقرآن وتسللهم لواذا حين سماعه ، وهذا آخر مانزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

الإيضاح

(وإذا ما أنزلت سورة) أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككا لهم : (أيكم زادته هذه) السورة (إيمانا) أى يقينا بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هـذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال :

(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار

الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجّب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال :

(أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟) أى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر والتفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه وخذلان أعدائه ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

(ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان وانطفاء نور الفطرة ، ولله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بين حالهم وهم فى مجلسه صلى الله عليه وسلم حين نزولها واستماع تلاوته لها فقال :

(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) أى وإذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلا بعضهم لبعض :

(هل يراكم من أحد ؟) أى هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو المؤمنون إذا قمتم من المجلس .

(ثم انصرفوا) أى ثم انصرفوا جميعا عن مجلس الوحى متسللين لواذاً كراهة منهم لسماعه وانتظارا لسنوح فرصـــة الغفلة عنهم ، فـكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

(صرف الله قلوبهم) أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق والاسترشاد بآيات كتابه إلى ما فى ملـكوت السموات والأرض من دلائل قدرته .

وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هـذا واحد فى كلامه تعالى .

(بأنهم قوم لايفقهون) أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون مايسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل . لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ماجاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ، أخير هو أم شر ؟ وأنى لمثل هؤلاء – وتلك حالهم – أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟ .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى من جنسكم ، وعزيز : أى شاق ، والعنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد ، والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجود ، والرأفة : الشفقة ، والرحمة : الإحسان .

المعنى الجملى

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة - ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم، إلى أنه يشق عليه ضررهم، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا والآخرة إليهم فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم عليهم، والطبيب الحاذق ربما أقدم على علاج يصعب تحمله، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها كما قال:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فَلْيَقْسُ أحيانا على من يرحم

قال أبىّ بن كعب رضى الله عنه: إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال: آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة، وعن ابن عباس: آخر آية نزلت (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوما.

الإيضاح

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم، والآية بمعنى قوله « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ».

ذاك أن منّته على قومه أعظم، وحجته بكتابه أنهض، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم و بنو المطلب، ولو لم يؤمن به و بكتابه العرب لما آمن العجم، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب، فآمن العرب بدعوته مباشرة، وآمن العجم بدعوة العرب، والعرب آمنوا بفهم القرآن و بيانه له صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والعمل وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه.

وقد امتنّ الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ » أى وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم وَيُدَوَّنُ لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أنفةً واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم - إلى أن فى اتباعه إقْرَارًا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

(عزيز عليه ما عنتم) أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

(حريص عليكم) أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم كما قال الله تعالى « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(بالمؤمنين رءوف رحيم) أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل مايدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريّها وربيعيها ويمانيها - يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب وبطونها .

(فإن تولوا فقل حسبى الله) أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلّغت وماقصرت .

(لا إله إلا هو) أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

(عليه توكلت) أى عليه وحده توكلت ، فلا أَكِلُ أَمْرِى فيما أعجز عنه إلى غيره .

(وهو رب العرش العظيم) العرش مركز تدبير أمور الخلق كما قال تعالى « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمةُ العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها ــ يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف والعسب إلا عنده ، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ، فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ــ إلى قوله وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبدا ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما ففى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

obeikandi.com

قال الحافظ بن حجر فى شرح البخارى : إن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، فهو صريح فى أن البحث عمن كتبها فقط اهـ .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أُبىٍّ بن كعب وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلا ، فلما كُتِبَتَا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يرو أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

---

obeikandl.com